د. منافـ منصور

تجربة « المدينة » في الشعر العربي المعاصر

مدينة بلا قلب

هل يكمن الفن في اختيار الموضوع أو في مدى مطابقته لتصوير الحقيقة ؟ أليس هو قبل أي شيءفي طريقة الشعور ؟ ذلك هو المحور الذي دارت عليه قضية القديم والحديث ، المحافظة والتجديد في الانتاج الفكري والفني عامة . واذا كانت جهودنا الادبية قد توزعت طيلة عهود النهضة في مدار الموقف من التراث ومن الروافد الغربية خاصة سمة حضورنا النهضوي ، فانه يبقى ، فوق كل اعتبار ، ان كل حقبة من عصر الانبعاث هذا تصور « قابلية » الفكر العربي ، في وضع ما ، على قبول المعطيات الغربية أو على رفضها بشكل أو بآخر. وهنا تبرز أهمية الدراسات المقارنة في تحليل عقليات الشعوبونفسياتها أو في فهم تفاعلاتها وردات الفعل عندها أمام مثارات خارجية .

ان « الحداثة » La Modernité لا تعني فقط التعبير عن الآني . فاذا كان النزاع بين القدامى والمجددين يصدر عن دعوى هؤلاء في ان « المعاصرة » تعني الاقتصار على الحاضر الكلي أو على بعض امتداده في الماضي ، أو اذا جهد الرومنطيقيون في اعتبار « الحاضر » هو الاكثر واقعا أو حقيقة ، أو أكثر مطابقة لمثال ما ... فان جماعة الشعر الحديث قد انفصلت بشكل او بآخر عن هذه المفاهيم التي حددت معالم ادبنا النهضوي حتى الحرب العالمية الثانية لترى ان « الحداثة » هي قبل كل شيء « موقف » من الاشياء ومن العالم يقفه الشاعر امام نفسه وأمام الحياة بكل عفوية وأصالة . لذا كانتالقطيعة مع الرومنطيقيين أساسية وفاصلة : فلقد حددت بوضوح العلامة المشتركة التي طبعت الثورة الفنية في القرن العشرين : وهي عدم القبول باخضاع الفن لاولية « الجمال » او « الحق » المقدرين مسبقا . وانصب الاهتمام على « البحث » والاستيغال في جوف الذات والاشياء ، وليس على « التعبير » ، أي تركز الجهد على وظيفة الفن الخاصة التي لا تقتصر على استيعاب الحياة وعلى أن يكون صداها بل على ان « يغيرها أو أن يعيد خلقها » . ولعل بودلير أول من طرح هذه القضية وصاغها .

وحركة شعرنا الحديث وقفت من قضايا المعاصرة موقفا مماثلا ، فهي لم تحضن المنجزات الحديثة (السيارة ، القطار ، الغاز ، الكهرباء ، المصانع ...) كما عمل شوقي في بعض قصائده . فالقضية ليست في « تصوير » أو في « تمثيل » الاشياء الجديدة بل في « سل ما هو خالد من الانتقالي » كما صرح بودلير (١) .

وفي تناولنا لديوان « مدينة بلا قلب » (١٩٥٩) لاحمد عبدالمعطي حجازي نجهد في تبيان تجربة « المدينة » ، ظاهرة الحياة العصرية على الاطلاق في شعرنا العربي المعاصر ، التي كانت محصلا منمحصلات تجربة الشاعرية العربية في تفاعلها مع الغرب مباشرة او غير مباشرة ، وفي امتداد خطها في تحولها او في تعاملها مع التراث . وبفعل عوامل اجتماعية ، اقتصادية ، سياسية ، وحضارية ، لعبت جميعها في دفع الحياة العربية الى التأقلم (وحينا الانصهار) في معطيات الحياة الغربية وأطرها ، وبفعل ما ينتج من هذه التجربة الحياتية نفسيا وفنيا ، نجد ان « المدينة » قد شغلت حركة الشعر الحديث بأبعاد غنية ومتنوعة (٢) . انها البؤرة التي تخلق الحياة المعاصرة او تحول بشكل حاد نمط الحياة والحساسية الى مضامين جديدة .

بالنسبة لبودلير ، ولبلزاك من قبل ، كانت « المدينة » موضوعا جديدا . ولعل ايليوت في قصائده الاولى

Perludes on the Hollow Men

قد تمكن من اعطائنا « الصيغة » الانكليزية لعالم المدينة الكبرى : للوجود الفارغ والارض الخراب . وسر الاختلاف بين تجربة بودلير وايليوت كامن في ان وصف الخير عند الاول هو أقل نجاحا من رسم الشر ، وفكرته عن السعادة لا تعدو ان تكون سرابا . ولكن بالنسبة للادب العربي ، هل يشغل شعر « المدينة » المكانة الهامة نفسها (من حيث الرؤيا ومن حيث الكمية) التي شغلها في آداب الغرب وخاصة في الشعر الفرنسي ؟

ليس للباحث غير التقاط بعض المواقف واللمع المنشورة في أشعار العرب التي تتحدث عن علاقة الشاعر بالمدينة ، وطبيعي اننجد ذلك في قصائد العباسيين حيث « المدينة » سمة الحياة في عصرهم اكثر منها في أي عصر مضى . ولتحديد اطار هذه التجربة نرى ان نميز الخطين التاليين :

أولا : رفض المدينة والتنكر لعالمها ولاهلها ولانماط الحياة فيها حيث تنعدم القيم ويستشري الفساد والموت . زمانها « زمان القرود » (أبو نواس) حيث « الآخر » هو « الجحيم » على حد تعبير سارتر . تندثر جميع الروابط الحميمة بين الناس اذ ينقلبون « ذئابا تلبس الثياب » (ابو فراس) بل « هم شر من الذئاب »

---

(١) راجع : Peintre de la vie moderne

(٢) يصدر لنا قريبا باللغة الفرنسية دراسة شاملة بعنوان : « L'Homme et la veille dans la poésie arabe moderne : Un apport baudelairien »

(ابن لنكك) :

يعيب الناس كلهم الزمانا وما لزماننا عيب سوانا
هكذا تصبح الصداقة (ثوبا منخرقا » (بشار بن برد) .
وتموت في الانسان براءته :
لم أجد لي من العباد مجيرا فاستجرت التراب والاحجارا
(حماد عجرد)

ثانيا : الدعوة الى المدينة والى عالمها ردا على الدعوة الى الطبيعة . لقد تميز شعرنا الغنائي الحضري بامتداد الحنين الى الحواضر هذه المرة ، لا الى الريف . ففي أواخر القرن السابع ، نجد أبا قطيفة المعيطي يتغنى باشتياقه الى المدينة المنورة (٣) ، وقبل أن ينظم البحتري قصيدته في وصف ايوان كسرى ، نجد اسحق بن ابراهيم الموصلي قد تناول بشعر رقيق موقع مدينة النجف . كما ان لعلي بن الجهم (ت ٨٦٣ هـ) اشعارا مؤثرة تصف حنينه الى بغداد(٤). ولعل ابيات الشريف العقيلي (ت.٤٥٠ هـ)تلخص بوضوح مضمون هذه الدعوة فيقول :

أطلب لروحك راحة بالاقتصار على القصور
واذا أردت تنزها فاشرب على نقش الحصير
فلنظرة في مجلس خير من الروض النظير
ولجامة مملوءة أبهى وأحسن من غدير

يلحظ ، بعد ، ان تجارب شعرائنا المحدثين بقيت تدور في الاغلب ، ضمن هذين الاطارين الواضحي المعالم . ولكن هل كان « الاحساس بالمدينة » او « الاستجابة للمدينة » تقتصر في دلالتها على تلك النظرات الى الطبيعة غير الحية حيث تكون الحاجات الفعلية في حياة الانسان « علة » فيها او « مصرفة » لها ؟ أي هل كانت المدينة شيئا « اضافيا » على حياة الانسان العربي أم انها كانت سمة هذه الحياة ومضمونها الذي لم يمكن ان يكون له بديل ؟ ما نوع العلاقة الجدلية بين المدينة والريف في ضمير الانسان العربي المعاصر ؟؟ وعليه ، أولا يصح التساؤل أيضا هل كل أحاسيس الشاعر تجاه المدينة وانفعالاته بمؤثراتها وجدت مجالا للافصاح عنها ، ام ان حدودا وقيودا عامة فرضها العرف الاجتماعي أو الدين أو نمط التقاليد ... قد طمست أشياء من معاناته الاصيلة والشاملة للحياة الجديدة ؟

انه لمن الواضح ان « الحياة المدينية » في المجتمع العربي لم تكن ، بالطبع ، محصل « ثورة صناعية » مميزة ، بل اننا «تلقينا» المدينة كما استعرنا تقنية أوروبا ومنجزاتها . وعليه ، فان قرنا من « الحداثة » قد أعطى في روسيا أديبا يسمى « بوشكين » وفي مصر شاعرا يسمى « شوقي » . لقد تحدث شوقي عن مدينة « وجدها » لا عن مدينة « صنعها » . الخالد عنده ان تمثل ، ان تصور وجه الجمال الخالد . معه لا نجد حديثا عن العلاقات ، عن التفاعلات القائمة بين انسان ومدينة . في حين عمل ابو شبكة على جعل « الصراع » بين المدينة والريف وجها من وجوه الصراع بين الواقع والمثال ، وهو منبع هام من منابع الرومانسية . انه يشعر بأن المثل العليا تتجسم في أجزاء الطبيعة ، لذلك يقرر الفرار من المجتمع الفاسد الشرير (٥) ، فيحمل على المدينة التي اضاعت الاخلاق وغلبت المادة على الروح ، والتهت الآلة الصماء (٦) . ولعل قصيدته « الحان القرية » (الالحان) تقدم صورة لالم الشاعر من غزو مظاهر المدينة الشريرة للقرية الجميلة فينأى عنها وجهها الحقيقي . انه يريد رجوع « الوجاق » و « الموقدة » و « الصاج » : من هنا كانت دعوته على هذه الحضارة بالدمار كما دمرت سدوم في التوراة (٧) . في حس ابي شبكة يمكن للانسان ان يكون وجها لوجه امام نفسه وذاته في الريف اكثر منه في المدينة : الارض وتفجر الطبيعة صورة الخلق وطاقة الابداع . حتى الابداع الشعري نفسه فهو على ضوء قنديل الكاز « أعذب واكثر الهاما ، في أثناء المخاض الذي يعانيه الاديب من النظم والكتابة على أسطع مصباح كهربائي » (٨) .

من خلال هذه الاطر العامة لتجربة المدينة في الشاعرية العربية كيف تتحدد مضامين « مدينة بلا قلب » ؟

الفرد والجماعة

تتلخص حكاية الانسان مع المدينة ، في عيني حجازي ، بانها حكاية انسان « تائه » و « غريب » . انه ساحق ومسحوق في آن . لا تحركه قوى عضوية وطبيعية فيه بل هو مشدود بالتنقل الدائم والسريع . كل شيء في المدينة مشكلة سببها ونتيجتها « الضياع » و « الامحاء » . ولعل قصيدته « الطريق الى السيدة » تبين مجمل هذا الموقف :

« كانني طفل رمته خاطئة
فلم يعره العابرون في الطريق
حتى الرثاء »

في الريف الانسان للاخر عزاء ورجاء . الخلاء وحده هو الغربة ، وبالآخر الانس : هذه هي بكارة العيش وفطرية التعامل . في المدينة لا يبالي الناس بعضهم ببعض :

« ... يمضون سراعا
لا يحفلون
أشباحهم تمضي تباعا
لا ينظرون »

في ضمير هذا القروي المصري القادم الى القاهرة شابا ، ابن المدينة « لقيط » ، مسلوب ، « ساهم » لا يعرف الآخر ، كان الناس « عمدان قرية مخربة » (٩) ، بل هم شر من ذلك :
« الناس في المدائن الكبرى عدد » (١٠)

ولكلمة « عدد » في حس القروي معنى آخر لا يدركه ابن المدينة . العدد عند هذا الاخير « قيمة » ، وعند الاول اصطلاح خاو ليس هو من أصل الطبيعة أو من أعضائها . وحجازي قد وفق هنا في التعبير عن فقدان الانسان براءة خلقه وتفاعل تواجده مع الآخرين : الناس هنا وجوه فارغة وأشكال مجوفة ، وما يجمع الارقام بعضها الى بعض « خانات » مصطنعة خاوية عن بكارة « القرابة » أو من « عضوية النسبة » . وعليه تنعدم « الصداقة » أو كل ما يمت الى الصحبة بمعنى :

طرقت نوادي الاصحاب لم أعثر على صاحب
وعدت... تدعني الابواب والبواب والحاجب
يدحرجني امتداد طريق
طريق مقفر شاحب

---

(٣) راجع الاغاني (ط ٣) ج ١ ص ٢١ .
(٤) العقد الفريد ، ج ٤ ص ١٠٦ .
(٥) راجع القيثارة ، ص ١٦ و ٧٣ .
(٦) راجع مقالته « الاديب والارض » : المكشوف ١٩٤١ ع ٣١٤ ص ١ .
(٧) راجع أغاني الفردوس ، ص ٣٧ .
(٨) ذكره رئيف خوري في مقالته : « ابو شبكة في لبنانيته » ، راجع الياس ابو شبكة : دراسات وذكريات ، ص ٧٠ .
(٩) راجع قصيدته « الى اللقاء » .
(١٠) راجع قصيدته « مقتل حبي » .

لآخر مقفر شاحب
تقوم على يديه قصور
وكأن الحائط العملاق يسحقني
ويخنقني
وفي عيني ... سؤال طاف يستجدي
خيال صديق
تراب صديق
ويصرخ ... انني وحدي » (١١)

ان « الغربة » نسغ الحياة المدينية وروحيتها . الفرد غريب مع نفسه وغريب مع الآخرين (١٢) ، من هنا كل شيء في المدينة قاس : انها بؤرة غربة تأكل الغرباء :

« وأمضي في فراغ بارد مهجور
غريب في بلاد تأكل الغرباء » (١٣)

مثله رفض خليل حاوي وجه المدينة الاثيم والحضاري الذي « يحول الحيوية الى كبريت ونار مجرمة » (١٤) .

هكذا يبرز الشعر فنيا ما تطمسه المدينة ذاتيا في المجتمع العربي . فينتقل الشعر الى التعبير عن مرحلة القلق الوجودي حيث التوغل في المنفى الداخلي وفي الغربة الروحية مرهقة ، متخطيا مرحلة القلق العاطفي والمراهقة التي غلبت أشعار ما بين الحربين العالميتين خاصة . ان سمة الحركة الحديثة تحسس المأساوي والفاجع في الحياة وكشف المعاناة الانسانية وابعادها للشخصية العربية من خلال التجربة الذاتية . فالعبثية والسأم والرفض ... هي وليدة التناقضات المزدحمة والاحداث المتراكمة بسرعة وبكثرة في هذا العصر مما أوجد الحواجز والحدود المدمرة ، فلم يكن بد اذن من التمرد ومن السعي الى « التغيير » والى « اعادة خلق هذا العالم » أهم ما سعت اليه حركة الشعراء المحدثين في فرنسا في القرن التاسع عشر (بودلير ، رامبو ، مالارمه ...) .

فاذا كانت المدينة عند شوقي مركز الاحداث العامة ووجه الحياة الرسمية الظاهرة وملتقى التعارف الانيق والبهج ، فانها عند حجازي صورة الانسحاق الداخلي والاجتماعي :

« هذا أنا
وهذه مدينتي
... وريقة أم الريح دارت ، ثم حطت ، ثم ضاعت في الدروب » (١٥)

بل « ليس يعرف اسمه هنا الا سواه » (١٦) ، أي هو يفقد كل هوية . عنده ان حضور الانسان يكون بالآخر لا بانعزاله عنه او بانفصاله منه :

« وصرت ضائعا بدون اسم
هذا أنا
وهذه مدينتي » (١٧)

وقصارى الامر ان « كل شيء يسرق الانسان من انسان » (١٨) ، فالى أين الطريق ؟ هنا يكمن صراحة عفوية الموقف العربي على العموم. ولكم يذكر هذا الوضع A . Esquiros حين كان يصرخ « الانسان، منهوكا من الانسان ، يبحث دائما عن اللجوء الى الطبيعة » . هكذا تتحدد العلاقة الجدلية بين المدينة والريف في ضمير الانسان العربي : « المدينة » في حسه « مثار » للريف . فالقرية أصل السحر والغناء والبهجة والخصوبة وتفجر الحياة (١٩) والحنين اليها هو بحث عن الانفراد عن المدينة . في قلب القرية تجوب الانا في مناجاة وجدانية وفي تأمل ذاتي وحيث أحد لا يعكر نشوتها الحادة . القرية رديف الانسان . فيها هبوطه الاول (٢٠) . انها بمشارفها وانفراجها « ترسل » الى المدينة ومخابئها وعلبها « رسالة » message البكارة والطهارة والكلمة المقدسة .

بيد ان ما يميز عبد المعطي حجازي انه يربط القرية دائما بالكلمة ، اذ يصعب ان تجده يتحدث عن القرية او عن اشيائها بغير ما يذكر « الكلمة » التي تبقى في حس العربي السامي بكارة الخلق والتكوين حيث براءة الجنة قبل السقوط . و « ليل القرى كلماتنا » (٢١) ، بينما في المدينة الانسان « أليس يعرف الكلام؟ » (٢٢) « أهلها دائما صامتون » (٢٣) . الكلمة « تكمل » الطبيعة في حس الريفي ، بينما الصمت « موت » و « انسلاب » ، لذلك الكلمة كالقرية سبيل للخلاص من الفناء والتلاشي :

« ولتمتد جذور الكلمة نحو قرانا
نحو قرانا ذات الدمع الوافر
كي تورق في قلب قرانا تلك الكلمات
وليقرأها الرجل الطيب
ولتنضج ولتصبح رايات » (٢٤)

الكلمة الطيبة كشجرة طيبة ، يخصها شاعرنا الى ابن الريف الذي هو وحده « الانسان » :

« واليك جئت وفي فمي هذا النشيد » (٢٥)

انه المرتجى كي يكون للكلام الحياة ، انه المرتجى للفرح ، للزهور كي لا يحب الموت انسان على هذا الوجود .

هكذا ترتب على حجازي موقفان واضحان من المدينة ومن عالمها هما ، بمعنى ما ، امتداد آخر للاطارين المحددين في أول حديثنا عن الشعر العربي :

أ ـ الهرب من المدينة والتنكر لعالمها . ولعل قصيدته « الطريق الى السيدة » توضح هذا المنزع ، اذ يتفجر الشاعر بالصراخ وبالويل على القاهرة :

لو كان في جيبي نقود
لا . لن أعود
لا لن اعود ثانيا بلا نقود
يا قاهرة
أيا قبابا متخمات قاعدة
يا مئذنات ملحدة
يا كافرة

---

(١١) راجع قصيدته « كان لي قلب » .
(١٢) راجع قصيدته « الطريق الى السيدة » .
(١٣) راجع « كان لي قلب » .
(١٤) راجع بيادر الجوع : قصيدة « جنية الشاطىء » .
(١٥) مدينة بلا قلب : انا والمدينة .
(١٦) قصيدة « مقتل صبي » .
(١٧) أنا والمدينة .
(١٨) الى اللقاء .
(١٩) كان لي قلب .
(٢٠) دفاع عن الكلمة .
(٢١) لمن تغني .
(٢٢) الطريق الى السيدة .
(٢٣) رسالة الى مدينة مجهولة .
(٢٤) أغنية في الليل .
(٢٥) لمن تغني .

أنا هنا لا شيء كالموتى ، كرؤيا عابرة (٢٦)

ولعل هذا هو أزمة الانسان الذي تحيله المدينة الى قزم ، الى لا شيء ، فيشعر بأنه « مسخر » لكل شيء . أوليس هو الوجه الآخر لازمة الانسان العربي المتمزق بين سهمين يتنازعانه ويتجاذبانه كشفتهما « حياة المدينة » وفضحتهما اجتماعيا وحضاريا :

١ ـ عدم القدرة على التخلص (على رفض) من الماضي وثقل تعاليمه وتقاليده ، اذ ان من طابع هذه العقلية ومن مكوناتها اعتبار « الصلاح » بالعودة دائما الى زمن الاسلاف حيث كل النور . وقد تجسد ذلك فنيا « في تقدير ملكة الابداع في قدرة الاتباع » (ابن قتيبة وسائر النقاد العرب) .

٢ ـ التعلق بمنجزات الحياة العصرية وأنماطها ، والشعور بمناسبتها لتلبية الحاجات الجديدة والطارئة .

ومحور التنازع قائم في ان الشخصية العربية الاجتماعية المعاصرة لم تحسن النظرة الى التقاليد ولم تتقن هضم التراث فتخلع من أصوله ، كل مرة ، أصولا جديدة ومتحركة . كما انها في الوقت نفسه ، لم تدرك أسرار الحضارة الجديدة ولم تجهد في كشف أصولها فاقتصرت على « تلقي » أشيائها الجاهزة وعلى استهلاكها . من هنا الشعور « بقزمية » الانسان العربي وبالتالي بعبثية حياته وخللها .

واذن أي شيء يدعو الى التعلق بالمدينة ؟ فاذا كان الانسان ـ وهو أول رجاء للريفي ـ معدوم الحضور ، فكيف بأشياء المدينة ؟ كل ما فيها استهلاكي ويجر الى الانحلال والتلاشي :

الليل في المدينة الكبيرة
عيد قصير
والنور والانغام والشباب
والسرعة والحمقاء والشراب
عيد قصير (٢٧)

العيد الحقيقي في الريف حيث النفس تمجد فعل الخلق بينما في المدينة الشوارع أفاع خانقة :

مختنقات مزدحمات
أقدام لا تتوقف سيارات
تمشي بحريق البنزين
مسكين (٢٨)

الطريق « مجهولة » ، « تائهة » ، بينما في الريف من وقع الاقدام تعرفها . الدرب في الريف الى انتهاء : تبدأ ببستان وتنتهي ببيت ، بينما في المدينة « تنحلزن » بغير انفراج ، طابعها الزحام والدخان والغبار أسباب الموت عند القروي :

شوارع المدينة الكبيرة
قيعان نار
تجتر في الظهيرة
ما شربته في الضحى من اللهيب
يا ويله من لم يصادف غير شمسها
غير البناء والسياج ، غير البناء والسياج
غير المربعات والمثلثات والزجاج (٢٩)

عند الريفي علامات المدينة : الحجارة والزجاج والترام والسيارة « صدر القدر » (٣٠) . فالزجاج هو الفراغ الداخلي الاجوف ، وجه مصقول ولكنه سريع العطب : والحجر هو القساوة المقدودة (الحجر في الريف يصير ياسمينة (٣١) يغني (٣٢) وفي المدينة دولاب نار وفرار (٣٣)) .

رسوت في مدينة الزجاج والحجر
... بحثت فيها عن حديقة فلم أجد لها اثر
وأهلها تحت اللهيب والغبار صامتون
ودائما على سفر (٣٤)

هذا التنقل الدائم هو طبع ابن المدينة الذي يستحيل « بدويا » آخر يتصارع مع الزمن وقضاياه :

رأيتهم يحترقون وحدهم في الشارع الطويل
حتى اذا صاروا رمادا في نهايته
نما سواهم في بدايته » (٣٥)

هكذا الحياة موت دائري مدقع ، الزمن فيها بطء النفس ، يفقدها « بركة » التأمل الذاتي :

« لو كلموك (أهل المدينة) يسألون ... كم تكون ساعتك » (٣٦)

هذا السبق في التهام الاشياء وليد قلق داخلي مفجر :

زماننا بخيل
يبخل حتى بالوداع، حينما يفرق الطريق بين صاحبين (٣٧)

وأعز شيء عند القروي « السلام » و « التحية » (٣٨) . انها دليل اعتراف الواحد بالآخر . لماذا يبقى اذن متعلقا بالمدينة حيث كل شيء انغلاق وتقوقع واندثار ؟ انها « سجن » فليرجع الى الريف حيث :

الافق رحب في القرى حنون
وناعم وقرمزي يحضن البيوت
وتسبح الاشجار فيه كالهوادج المسافرة
يا ليتنا هناك » (٣٩)

كل حركة في القرية داخلية في عصب الاشياء ووجدانها . لذلك فان حجازي وان اتفق مع بودلير في تصوير العبثية والضياع وتجارب الحياة اليومية ، الا ان شاعرنا يفترق في حقيقة اجتماعية انه ليس « شاعر مدينة » بقدر ما هو مسكون بصور القرية وحضورها ، منها يستمد على الاطلاق نسغ رؤيته .

ب ـ تقبل المدينة ولكن لا كما هي في الواقع بل « كما يتمناها » في ضميره مثل ما أوضح رجاء النقاش في مقدمة هذه المجموعة الشعرية . وهكذا يكشف الشاعر رغم كل شيء ، عن مفاصل الود التي تربطه بالمدينة (٤٠) :

---

(٢٦) الطريق الى السيدة .
(٢٧) الى اللقاء .
(٢٨) سلة ليمون .
(٢٩) الى اللقاء .
(٣٠) الطريق الى السيدة .
(٣١) فصل الصعود الى أبراج الموت : كتاب التحولات والهجرة ...
(٣٢) لعازر عام ١٩٦٢ : بيادر الجوع .
(٣٣) السندباد في رحلته الثامنة : الناي والريح .
(٣٤) رسالة الى مدينة مجهولة .
(٣٥) رسالة الى مدينة مجهولة .
(٣٦) رسالة الى مدينة مجهولة .
(٣٧) رسالة الى مدينة مجهولة .
(٣٨) الطريق الى السيدة .
(٣٩) الى اللقاء .
(٤٠) راجع قصيدة « أغنية للقاهرة » في مجموعة احلام الفارس القديم لصلاح عبد الصبور .

ولكنني في المساء أبوح ...
... أناجي ضياء المدينة
اذا ما تراقص تحت الجسور
أقول له ... يا ضياء ارو قلبي فاني أحب
أقول له أنيس المراكب والراحلين أجب
لماذا يسير المحب وحيدا ؟
... أحس كأني بعض ظلال وبعض ضياء
أحس كأن المدينة تدخل قلبي
كأن كلاما يقال ، وناسا يسيرون جنبي
فأحكي لهم عن حبيبي (٤١)

هنا المدينة والشاعر يتداخلان ، فتخبو ازدواجية العيش التي يعاني منها الانسان في المدينة : هنا يصبح الحلم والواقع حالا واحدة ، تمحي حدود الغربة على عكس ما كان يحس دائما حجازي بدليل ما كان يقول :

رسائلي بوحي حياتي قصة خرساء
تقصها العيون
كأنني أعيش في ميناء
أحار في تعدد الاجناس واللغات والازياء
فأرقب الحياة صامتا
مكبل الحنين
كأنما بيني وبين الناس قضبان
كأنني سجين
أشير ، أحلم الحياة لا أعيشها (٤٢)

أفتك ما يعطل حس القروي العيش في « ميناء » حيث يترسب كل ما يلفظ في العالم وما يفرز . يصبح بلا هوية . في حسه انه كلما تشابه البشر كلما فقدوا فرادتهم المميزة . من هنا امحاء الفولكلور وجذور الاصالة . الحرية في فرادة البشر وفي ممارسة هذه الفرادة . وكلما فقدها الناس كلما شعروا بغربتهم ووحشتهم . وعليه تتحصل ازدواجية الحضور : واقع مرير يعاش وحلم جميل يرتجى ! فتصبح الحياة خواء ، وتفرغ الاشياء من معانيها فتستحيل اشكالا مجوفة تعكس ماضيا جامدا ولا تقدر ان تصوب الى مستقبل . من هنا تكون المدينة « سجنا » حقيقيا .

غير ان موقف بودلير من المدينة ليس موقف « السجين » ، ففي « ازهار الشر » النافذة La Fenêtre ليست مطلا الى الافق كما هي عند مالارميه ،بل هي «فتحة» نحو المدينة (٤٣) ليراها وليعرفها أكثر . وليس « الحلم » عنصرا غريبا ايضا عنها ، انه يجسد الرغبة في الفرار وفي السفر ولكن في قلبها . فليس اذن بالبعد عن المدينة بخيالنا بل بالتوغل في عناصرها «المدينية» urbains (٤٤) يدرك اسرار مثاليتها .

المرأة والحب

لم يأت حجازي في « مدينة بلا قلب » الى الحديث كثيرا عن المرأة وعن معاناته معها . غير ان له موقفا « واضحا » منها ، وهو الضائع المسحوق ، فلم يتخذ من بنت المدينة « حبيبة » له ، فيقول لابيه :

« وأنت كم حذرتني من نسوة المدن » (٤٥)

انها لا تعرف معنى للحب الصافي ، الانوثة عندها غرض اتجار أو تصيد (٤٦) ، لذلك أتى بحبيبته معه من الريف (٤٧) ولكن الشاعر لم يستطع أن ينعم بالاجواء نفسها التي يشهدها في القرية . رغم ان حبيبته هي معه الآن في المدينة ، الا انه بقي يشعر بالخطر وبالغربة ، غير انها على أي حال بقيت عزاءه في عالم يدرك انه فيه وحيد :

تعالي ... قد نجوع هنا
ولكنا هنا اثنان
ونعرى في الشتاء هنا
ولكنا هنا اثنان (٤٨)

* * *

بقيت المدينة موطن أحزان تبعث منها « ريح العفن » (٤٩) ، شوارعها مقفرة (٥٠) لانه « وحيد في مدينة كبيرة » (٥١) ، في الريف « المدى » ، وفي المدينة ازدحام الناس واصطناع الزرع في آنية من النحاس (٥٢) ، اذ بتغربنا في المدن المتوحشة القذرة نفقد فيها قربنا وبراءتنا (٥٣) . من هنا بقي نسغ الموقف من المدينة في مجمل مراحل الشاعر البحث عن الريف للعودة الى البكارة :

بكر أنا
أمشي على أرض البكارة
أرض أنا فيها مواطنها السعيد (٥٤)

* * *

ان تكن هذه معالم تجربة شاعر مصري مع القاهرة ، فانللشعراء اللبنانيين والسوريين والعراقيين ... حدودا متشابهة فيالمواقف. انها مشكلة « الانسان العربي » مع « المدينة » العربية ، انسان ممتلىء بحساسية خاصة أمام الآلة والزحام . يؤكد صلاح عبد الصبور تجربة زميله المصري فيصرح بالمضامين نفسها :

في زحمة المدينة المنهمرة
أموت لا يعرفني أحد (٥٥)

فتبقى « الغربة » و « الحزن » أهم الملامح التي أشار اليها عن تعامله مع المدينة (٥٦) .

ومع السياب تستحيل الحياة مع « المدينة » الى « تجربة موت مدقع » :

دعها تأكل الموتى مدينتنا لتكبر تحضن الاحياء
.. مدينتنا منازلها رحى ودروبها نار

---

(٤١) حب في الظلام .
(٤٢) العيون
(٤٣) راجع قصيدته Paysage
(٤٤) راجع قصيدة بودلير Les Sept Vieillards
(٤٥) رسالة الى مدينة مجهولة
(٤٦) قصة الاميرة والفتى الذي يكلم الماء .
(٤٧) حب في الظلام .
(٤٨) كان لي قلب .
(٤٩) راجع قصيدة الدم والصمت في ديوان : لم يبق الا الاعتراف .
(٥٠) الامير المتسول : لم يبق الا الاعتراف .
(٥١) الوجه الضائع : لم يبق الا الاعتراف .
(٥٢) قصيدة الرحلة الى الريف في مجموعة أوراس .
(٥٣) راجع « هواي عليك يا محمد » في : مرثية للعمر الجميل .
(٥٤) البحر والبركان : مرثية العمر الجميل .
(٥٥) أغنية للشتاء من مجموعة عبد الصبور : احلام الفارس القديم .
(٥٦) : راجع « الحزن » و« الشيء الحزين » من مجموعتهاقولكم

لها من لحمنا المعروك خبز فهو يكفيها
غلام تمد للاموات ايديها وتختار
تلوك ضلوعها وتقيئها للريح تسفيها » (٥٧)

كل ما في المدينة « اطيار من الفولاذ » او « ازهار خلف واجهة زجاجية » (٥٨) لا تخاف من المطر دروبها « حبال من النار يجلدن عري الحقول الحزينة » (٥٩) في « مدينة الخطاة (٦٠) حيث الابواب مسدودة ولا يتقن الانسان فيها غير الانتظار (٦١) يرى « المال شيطان المدينة » (٦٢) ، لذلك يستصرخ من سرير الموت والكبت والوساوس :

« وان سلمت فان كوخا في الحقول
هو ما اريد في الحياة » (٦٣)

ومع حاوي تبقى المضامين الوجودية عصب مواقفه من المدنية (٦٤) بيروت عنده « دهاليز لعينة » (٦٥) « مدينة افيون » (٦٦) ، ان فيها « دنيا غير دنيا الكدح والموت الرتيب » (٦٧) ولعل قصيدته « جحيم بارد » تلخص جوانب الحياة في المدينة :

هذيان ، سأم ، رعب ، سكوت
الرؤى السوداء ربي صرعته
خلقته باردا مرا مقيت
ليت هذا البارد المشلول
يحيا او يموت » (٦٨) .

وان تغيرت النبرة مع ادونيس ، او تغير وقع المدينة وموقعها في عالمه الاخر الذي يبدعه باللغة ، فلقد بقيت « مرفوضة » :

« نحن نحيا في تجاويف المدينة
كالحلازين وراء القوقعة
ايها الرفض اكتشفنا » (٦٩) .

المدينة « قشرة العالم في يدي » (٧٠) يسكنها الفراغ في كل شيء:

فراغ زمان بلادي فراغ
وتلك المقاهي
وتلك المقاهي
فراغ » (٧١)

فلان المدينة « حجر يناى وأشلاء سفينة » (٧٢) ولان الضياع والعويل يملآن وجهها (٧٣) ولاننا كلنا فيها « نصلي كلنا نمسح

---

(٥٧) : راجع قصيدة « ام البروم » : المعبد الغريق
(٥٨) سفر ايوب : منزل الافنان
(٥٩) : جيكور والمدينة : انشودة المطر
(٦٠) : مدينة السندباد : انشودة المطر
(٦١) : النبوءة الزائفة : المعبد الغريق
(٦٢) : المومس العمياء : انشودة المطر
(٦٣) : وصيه من محتضر : منزل الاقنان .
(٦٤) : السندباد في رحلته الثامنة : الناي والريح .
(٦٥) : ليالي بيروت ، المجوس في اوروبا : مجموعة نهر الرماد .
(٦٦) السندباد في رحلته الثامنة : الناي والريح .
(٦٧) : ليالي بيروت : نهر الرماد .
(٦٨) : جحيم بارد : نهر الرماد .
(٦٩) : القوقعة : اغاني مهيار الدمشقي
(٧٠) : الكرسي : اغاني مهيار الدمشقي .
(٧١) الفراغ : اوراق في الريح
(٧٢) : المدينة : اغاني مهيار .
(٧٣) : الاطفال : اوراق في الريح .

احذية » (٧٤) ولانها « امراة منذورة لكل من يجيء » (٧٥) ، ولانها ارض تصنع « الق الحضارة » :

والمدينة
اترك لها استثناء تيوسها وطلائعها ورصادها من جواسيس
وزعماء وغيرهم .. » (٧٦)

ولانها اكثر من ذلك ، فهو يدعوها :

وجهك وجه صخرة
الكون في وجهك مثل رمل » (٧٧)

او فان :

« نارنا تتقدم نحو المدينة
لتهد سرير المدينة » (٧٨)

لتبقي اخيرا القرية صورة الدنيا ومثالها :

« ما اصغر الدنيا ففي قريتي
تلتم في بيت وفي منظر » (٧٩) .

هذه هي اهم المحطات التي عوّل عليها شعراؤنا في تجربتهم مع الحياة المدينية المعاصرة مظهرا اساسيا من مظاهر تجربتهم من الحضارة الجديدة التي كان لهم فيها فضل التبني والاستهلاك اكثر مما كان لهم فعل المشاركة في ايجادها وتطويرها . لم ندخل في تفاصيل المواقف العربية ودقائقها امام التغيرات الهندسية Architercture التي تحصلت عن ردات فعلها في النفوس، لم نحلل الانطباعات الذاتية امام مجمل الخصائص والعناصر التي اتت بها المدينة : الحدائق العامة ، الساحات ، البنايات العالية واشكالها الداخلية ، المحلات والواجهات ، النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، الجرائد والمنشورات ، السيارات والقطارات المصانع .. والى ما هنالك مما يشكل عالم المدنية الخاص .

لقد قصرنا هذا الحديث على تبيان موقف الانسان العربي على العموم من « المدينة » كعالم كلي ، من خلال الشعر الذي اعتبره العرب فنهم الخاص بهم كما كان يدعي الجاحظ . ولقد توضح موقف الفرد من الجماعة في المدينة ، فهو اللجوء الى الهرب والانعزال (وهو موقف رومنطيقي في اساسه) وقلما تقبلوا بلا أي نفور تحفظ العيش مع الجماعة كما فعل ابولينير في Guetteur mélancolique غير ان بودلير بديل ان يترك نفسه مسحوقا بأهل المدينة ، نراه يسابقهم ليأتوا هم اليه فيردهم(٨٠) .

وما عدا بعض اللوامع التي تتالق في اشعار ادونيس المتميزة بأسلوبه السوريالي الاستبطاني الخاص ، فان المدينة بقيت « عالما » قائما بذاته ومنفصلا عن النفس العربية ، وبقي الشاعر يتحدث عن علاقاته معها فلم تستطع « المدينة » ان تكون « حالة الشاعر » او بنيتها الرمزية كما هي La ville des Illuminations عند رامبو . فالمسافر في Illuminations امام المدينة هو « الشاعر » نفسه، انها عالمه الداخلي ، والريف عالمه اللاواعي (٨١) .

---

(٧٤) : وطن : اغاني مهيار .
(٧٥) : فصل الدمع : تحولات الصقر : كتاب التحولات .
(٧٦) : ارض تعرض نفسها علي : فصل المواقف : كتاب التحولات .
(٧٧) : المسرح والمرايا ص ١١٣ .
(٧٨) : المدينة : اغاني مهيار الدمشقي .
(٧٩) : ما اصغر الدنيا : قصائد اولى .
(٨٠) : راجع قصائد بودلير
Le Jeu , Les petites vieilles ...
Les Foules , Les Aveugles ,
(٨١) راجع : Après Le Déluge ou Enfance